انسجام الخواتيم في الآيات القرآنية

د. حازم ذنون إسماعيل
كليـة التربيـة / جامعة الموصل

الاستلام ٢٠ / ٠٤ / ٢٠٠٨
القبول ١٠ / ٠٩ / ٢٠٠٨

Abstract

The Study of the harmony of the ends of the Qur'anic verses is considered to be of great importance in the Qur'anic context. It reguires to be fully comprehended in order to extract the artistic approach used by the Qur'an. The harmony of the ends is important for it reveals one of the Qur'anic miricales and is regarded as on of the Qur'anic styles as well. The research tackles the linguistic and idiomatic meamings of the harmony of the ends. It is concluded that there is a relationship between the two meanings. The idiomatic meanings are based on the linguistic meanings and they get their elements from them. The harmony of the ends is independent. It emphasizes and clarifies what precedes it. The research aimd of showing the importance of the harmony of the ends in supporting the context as a whole. Had the harmony of the ends changed, the meaning would have been defective and incomplete.

الملخص

إنَّ دراسة انسجام الخواتيم في الآيات القرآنية يُعدّ عناية فائقة بالسياق القرآني وتدبره وتأمله واستنباط المنهج الفني الذي يسري في نسقه، وكذلك يُعد الانسجام في الخواتيم من الظواهر القرآنية المهمة لأنه يُبين وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني بوصفه أسلوباً من أساليب التعبير القرآني للوقوف على أسرار إعجاز الكتاب العزيز.

وتضمن هذا البحث المعنى اللغوي والاصطلاحي لانسجام الخواتيم ، ووجدنا ثمة علاقة بين المدلولين، وهو أمر معروف في مجال الكلم الدلالي ، إذ ترتكز الثانية على الأولى وتستمد منها مقوماتها.

وكذلك فإنَّ انسجام الخاتمة قد يكون مُتفرداً في ذاته فهو يأتي تأكيداً وتوضيحاً لما سبقه من سياق قرآني لأنّه يمثّلُ زيادة معنوية تؤدي فائدة.

وقد سعينا في هذا البحث إلى بيان أهمية انسجام الخواتيم في إغناء السياق برمته وأنَّه لو غُيِّر أو بُدِّل لاختلَّ المعنى واضطرب، وأُتيَ بالمعنى منقوصاً.

الانسجام لغة : مأخوذٌ من سَجَمَتِ العين إذا قطر دمعُها وسال قليلاً أو كثيراً ، ويُقال : سَجَمَ سَجْمَاً وسُجُوماً وسَجَماناً، وسَجَمه هو وأسْجَمَه وسجَّمَه تسْجِيْماً وتَسجاماً: إذا صَبَّه، وانسجم الماء والدَّمع فهو مُنسَجِمٌ: انْصَبَّ، وانسجم الكلام: انتظم(١).

فالمعنى اللغوي يوضح لنا إ نَّ الانسجام هو انصباب الماء من العين بشكل قليل أو كثير، ثمَّ استعمل في انتظام الكلام وترتيبه، ففي انصباب الماء انسجام وانتظام وكذلك الكلام يكون مُنسجماً انتظاماً معبراً عمّا يُريده المُخاطب، وهذا المعنى أنسب ليُطلق على خواتيم الآيات التي تأتي بعد تمام الكلام فيها قصد إيضاحه أو توكيده أو تبيينه ليكون أكثر اتساقاً وانسجاماً.

الانسجام(٢) اصطلاحاً :

اعتنى العلماء بالانسجام والنسق ومعرفة الفصل والوصل وبراعة التخلص في الكلام العربي ، وأنّها إذا تمت فيه ببراعة وحذق عند ذلك فإنّ جمال الانسجام في خواتيم الآيات تعود إلى السلاسة والبراعة في التعبير.

يقول ***ابن أبي الأصبع*** في توضيحه للانسجام في محاسن الكلام "هو أنْ تأتي الكلمات من النثر والأبيات من الشعر متتاليات متلاحمات تلاحماً سليماً مستحسناً لا معيباً ولا مُستهجناً، والمُستحسن من ذلك أنْ يكون كلّ بيت إذا أفرد قام بنفسه واستقلّ معناه لفظه، وإن ردفه مجاوره صار بمنزلة البيت الواحد بحيث يعتقد السامع أنهما إذا انفصلا تجزّأ حسنهما ونقص كمالهما وتقسم معناهما، وهما ليسا كذلك بل حالهما في كمال الحسن وتمام المعنى مع الانفراد والافتراق كحالهما مع الالتئام والاجتماع"(٣).

وكذلك في حديثه عن الانسجام يقول : "وهو (أي الانسجام) أنْ يأتي الكلام متحدراً كتحدُّر الماء المنسجم، سهولة سبك؛ وعذوبة ألفاظ حتى يكون للجملة من المنثور والبيت من

---

(١) ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس: محمد مرتضى الزّبيدي، ٣٢/ ١٧٧-١٧٨.

(٢) ثمّة فرق بين الاتساق والانسجام إذ إنَّ الانسجام أعمّ من الاتساق لذا اعتمدنا على مصطلح الانسجام على أنّه يشترط قيام فعل من المتلقي مقابل فعل النَّص، إذ يعيد انسجام نصٍّ قد يبدو أوّل وهلة غير منسجم . ينظر: لسانيات النص- مدخل إلى انسجام الخطاب- : محمد خطابي، ٥ ، وفعالية القراءة وإشكالية تحديد المعنى في النّص القرآني: محمد بن أحمد جهلان، ١٢٩، وقد أطلق محمد مفتاح على الانسجام الثابت البنيوي والتداعي والتكثيف، دينامية النّص (تنظير وإنجاز)، ٢١٢، فضلاً عن ذلك فإنّ الانسجام يتكوّن من اجتماع التنضيد والتنسيق، فالتنضيد: هو عدد من أدوات العلائق النحوية، مثل : الواو و أو وأدوات الاستثناء وحروف التعليل وما يدلُّ على الغاية والشرط والجواب . أمَّا التنسيق فيشمل كثيراً من المنسقات اللغوية وخصوصاً إذا ألّف بين الدراسات النحوية والبلاغية. التلقي والتأويل – مقاربة نسقية: محمد مفتاح ، ١٥٨.

(٣) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن: ابن أبي الإصبع المصري ، ٤٢٧.

الموزون وقع في النفوس، وتأثير في القلوب ما ليس لغيره مع خلوه من البديع وبعده عن التصنيع"(١) ويمثل الانسجام الشكل الظاهري للكلام حيث الربط ومتانته بين أجزائه، ويكون تأثيره مُنصباً على منبهات النفس ولاسيّما الحواس منها، فضلاً عن ذلك فهو يمس مُباشرة ملكة الذوق فيكون وقعه أشد، واستجابته النفسية أكثر.

ويُعرِّفُ ***السيوطي*** الانسجام "هو بأنّ الكلام –لخلوه من العقادة– يكون متحدراً كتحدُّر الماء المنسجم.

ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقة"(٢) ثُمَّ يقول: "والقرآن كله كذلك"(٣).

ويرى ***الزركشي*** أنَّ أواصر الانسجام بين آي القرآن متوفرة "ومرجعها – والله أعلم– إلى معنى رابط بينهما عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي، وغير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب والمُسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين ونحوه ، أو التلازم الخارجي كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر "(٤). ويرى كذلك أنّ فائدة الانسجام هي "جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء"(٥).

ويمكننا أن نقول : إنَّ الانسجام هو الترابط بين أجزاء الآية في صورة جميلة أخاذة تسترعي الانتباه وتُريح الحواس وتتماشى والذوق الرفيع بحيث لا خلل ولا فوضى، بل تراص والتحام في أسلوب بديع.

والانسجام نابع من طبيعة اللغة العربية، وفطرة عقلية العرب البيانية، فإن العربي كان ينطق وكأنه نبع فياض لا تكلف ولا إجهاد في الفكر والعقل، بل سلامة في سبك متين، وانسجام وتناسق في الأجزاء على غاية من الإبداع وبساطة في الفطرة ونقاوتها.

وهذه الروح تسود القرآن كله في الآية الواحدة والآيات المتعددة والسورة كاملة (٦) ولاسيما في خواتيم الآيات القرآنية.

وسنخصص في هذا البحث الكيفية التي تتفاعل بها أجزاء النّص القرآني وتماسكها لتُشكِّل نصّاً متسقاً، لأنَّ المتأمل في كتب التراث التي تناولت علوم القرآن لا يجد عناء لكي يقع

---

(١) تحرير التحبير: ٤٢٩.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، ٣/ ٢٠٦.

(٣) المصدر نفسه: ٣/ ٢٠٦.

(٤) البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله ، ١/ ٣٦.

(٥) المصدر نفسه: ١/ ٣٦.

(٦) ينظر: تحرير التحبير، ٤٣٣، والإتقان في علوم القرآن: ٣/ ٢٠٦ .

على الآليات والأساليب التي تحقق انسجام النَّص ولعلّ من أبرز هذه الأدوات قضية انسجام الخواتيم في الآيات القرآنية.

فانسجام الخاتمة يُقصد به التآلف بين البداية ومطلق نهاية الآية، وبعبارة أوضح : يُمكِنُ أنْ نُحدِّدَ انسجام الخاتمة بأنَّه انتهاء الآيات القرآنية بما يدعُ المعنى مستساغاً ومسايراً للسياق، ومقبولاً في النَّفس وقادراً على الإثارة والتأثير في تحريك العقل ومسِّ الوجدان، وإثارة النَّفس والمُخيلة لتتدبر وتتفاعل وتتجاوب في عمق مع المعنى العام من السياق.

مما تقدّمَ نلحظ الصلة الوثقى بين المعنى اللغوي والاصطلاحي، إذ إنّ الثاني قد استمدَّ مقوماته من الأول، فرأينا أنَّ المعنى اللغوي يتمحور حول انصباب الماء وانتظامه وكذلك الانتظام في الكلام يكون مُنسجماً معبراً عن الدقة فيه، وكذلك وجدنا المعنى الاصطلاحي يدور حول تتابع الآيات القرآنية وتلاحمها تلاحماً منسجماً، حيث الربط والمتانة بين أجزاء الآيات والتأثير في النفس وسهولة الألفاظ ودقتها.

يقول ***ابن أبي الإصبع*** : "يجب على الشاعر أو الناثر أنْ يُخْتَمَ كلامهما بأحسن خاتمة، فإنَّها آخر ما يبقى من الأسماع ولأنَّها رُبَّما حفظت من دون سائر الكلام في الغالب، فيجب أنْ يجتهدَ في رشاقتها ونضجها وعلاوتها وجزالتها، وقد رأيت القاضي الفاضل ***عبد الرحيم*** -رحمه الله تعالى- كثيراً ما كان يحترز في ذلك ويتوخاه فيأتي منه بكُلِّ نكتة ترقصُ لها القلوب وتغني عن النسيب المبوب"(١).

وفي حديثه عن خواتم السور القرآنية قال: "وجميع خواتم السّور القرآنية في غاية الحسن ونهاية الكمال، لأنّها بين أدعية ووصايا وفرائض وتحميد وتهليل إلى غير ذلك من الخواتم التي لا يبقى في النُّفوس بعدها تطلُّعٌ ولا تشوفٌ إلى ما يُقال"(٢).

وينظر عدد من الباحثين إلى أنَّ انسجام الخاتمة في الكلام هو مُناسبة لفظية مرغوبة ومطلوبة لأنَّها تُريح القارئ، وتُرشده إلى تلوين الصُّورة وإجادة الوقف، وتزيد من روعة التلاوة بما تخلع عليها من إيقاع مُحبب، وتَمُدُّ القرَّاءَ بألوان من التنغيم المؤثِّر والتطريب الأخَّاذ في أغلب الأحيان.

وهذا الكلام لا يصدُق على القرآن الكريم – على إطلاقه- وإنْ صَدُقَ على عمل الكُتاب والشُّعراء وغيرهم، فلانسجام الخاتمة دورٌ مُهم مُرتبط بما قبله من الكلام، يفوق القول بالتّنغيم والتّطريب، وينحدر على الأسماع انحداراً، وكأنَّ ما سبقه لم يكُنْ إلاَّ تمهيداً له، حيث لو غُيِّر أو بُدِّل لاختلَّ المعنى واضطرب السياق في الآية، وليس هذا الأمر دائماً فهناك من الآيات ما

---

(١) تحرير التحبير : ٦١٦.

(٢) المصدر نفسه: ٦٢٠.

يكسر أُفق التّوقع عند المُتلقي أو السامع، ولكلٍّ سرٌّ بياني ومقصدٌ دلاليّ في الإشارة إلى المطلوب.

فالانسجام يأتي لمقاصد في ختام الآيات حاملاً تمام المعنى، وتمام التوافق الصوتي في آن واحد.

ولقد حاول كثير من العلماء في دراساتهم حول القرآن الكريم أنْ يقفوا على مظاهر الإعجاز فيه، فبهرهم جماله الصوتي والنَّحوي والدلالي ما استوقفهم واسترعى انتباههم[١]، فكان القرآن الكريم وما زال هو الكتاب الوحيد الذي تُوضع من أجل تلاوته تلك المُؤلفات العديدة في التجويد، وعلم القراءات، حتّى تبقى لكلمات الله (ﷻ) تلك الحلاوة الصوتية الرائعة التي تُؤثّر في النُّفوس، وتسمو بمشاعر الإنسان.

ومِنْ هنا كان انسجام الخواتيم في القرآن الكريم ذا أثرٍ واضحٍ في اليقظة النفسية التي تأتي عن طريق حاسة السّمع في الإنسان ، لأنَّ ذلك الإيقاع الصوتي والمعنى البياني الناتج عن الخاتمة في الآيات القرآنية يُرهفُ الإحساس ، ويُنشّطُ الانفعال.

ويُمكن أنْ نقولَ : إنَّ انسجام الخواتيم لا يأتي لمُجرد الحلية اللفظية من دون اعتبار للمعنى– وسنلمس هذا جلياً عند تحليلنا الآيات– ولكنَّه يأتلف مع ما يدلُّ عليه الكلام، وإنَّ علاقةَ الانسجام بما سبقه مِنَ النص القرآني، يكون تمكيناً لمكانه؛ ويكون مُستقراً في قراره؛ غير نافر ولا قلق؛ مُتعلقاً معناه بمعنى الكلام كُلّه تعلُّقاً تامَّاً؛ حيثُ لو طُرح أو غُيِّر اختلَّ المعنى واضطرب الفهم[٢].

وأودُّ أنْ أشير إلى أنَّ هناك مذهبين سادا وما زالا في الدراسات النّصية الغربية المهتمة بانسجام النّص، أحدهما يرى أنَّ النَّص إنتاج لغوي لساني يكمن الانسجام في ذاته، فمجرد كونه نصاً يُحتِّم كونه منسجماً، وهذا المذهب مثَّله علماء لسانيات الخطاب ودراساتهم تنطلق من المنظور اللساني الوصفي التحليلي.

أمَّا المذهب الثاني الذي تهمُّنا آراؤه أكثر فهو الذي يعنى بانسجام النصوص من منظور المتلقي، وذلك بدراسة العمليات التي يُوظِّفها هذا الأخير لبناء نصٍّ منسجم[٣].

وغايتنا في هذا الفصل أنْ نُبين العلائق المعنوية السياقية التي تربط انسجام الخواتيم بما يسبقه من الكلام، فيكون الانسجام تتويجاً لما يسبقه بحيث يُناسبُ فحوى المعنى الوارد.

---

(١) مكانة الفواصل من الإعجاز في القرآن: محمد رجاء حنفي، الدارة، ع(٣)، س(١٥) ، ١٩٩٠، ٨.

(٢) من أسرار التعبير في القرآن –الفاصلة القرآنية–: عبد الفتاح لاشين ، ٣٩.

(٣) ينظر: لسانيات النص– مدخل إلى انسجام الخطاب– : ٩٠، وفعالية القراءة وإشكالية تحديد المعنى في النّص القرآني: ١٢٩–١٣٠.

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : { ڃ ڃ چ چ چ چ ڇ ڃ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ } **[الأحزاب/٢٥]** عبرت الآية عن الانسجام في قوله تعالى : { ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ } **وقوله تعالى** : { ڎ ڎ ڈ ڈ } فهذان المقطعان جاءا لغرض بلاغي ومعنى دلالي اقتضاه السياق ولو ختمت الآي ة بقوله تعالى: { ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ } واكتفى بها لتوهم بعض الضعفاء أنَّ ذلك يعني موافقة للكفار في اعتقادهم أنَّ الرِّيح التي حدثت كانت سبب رجوعهم ولم يبلغوا ما أرادوا، وأنَّ ذل ك أمرٌ اتفاقي فأخبر الله (ﷻ) في انسجام الخاتمة عن نفسه بالقوة والعزة لِيُعْلِمَ المؤمنين ويزيدهم يقيناً وإيماناً بـأنَّه هو الغالب الممتنع، وأنَّ حزبه كذلك فقال تعالى: { ڎ ڎ ڈ ڈ }.

وبيَّن انسجام الخاتمة الثانية أنَّ تلك الرِّيح التي هبَّت ليست اتفاقاً، بل هي من إرساله (ﷻ) على أعدائه كعادته، وأنَّه يُنوِّع للمؤمنين ليزيدهم إيماناً بنصرهم مرة بالقتال كيوم **(بدر)** وتارة بالريح كيوم **(الأحزاب)** وتارة بالرُّعب كـ**(بني النضير)** وطوراً ينصُرُ عليهم كيوم **(أُحد)** تعريفاً لهم أنَّ الكثرة لا تُغني شيئاً، وأنَّ النَّصر من عنده (ﷻ) كيوم **(حُنين)**⁽¹⁾.

واستعمل القرآن الكريم الأصوات الشديدة المجهورة وهي تحتاج إلى جهد في نطقها وقوة في أدائها لتناسب الموقف العام للآية، وردَّ الله (ﷻ) الكافرين بغيظهم ودفع عن المؤمنين شدة القتال وكربه، وهذا الأمر الشديد احتاج إلى حروف شديدة وقوية لتنسجم م ع السياق العام للآية.

إنَّ ما تمتاز به آيات القرآن الكريم أنَّها تشع نوراً وظلالاً وتناسقاً وانسجاماً، ودقة وقوة وإثارة وتأثيراً، وتزداد جمالية وفهماً من خلال فهم أسلوبه وتعبيره من ذلك قوله تعالى : { ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ } **[العنكبوت /٤١]** إذ جاء الانسجام في هذه الآية متسقاً مع المعنى العام لها ، وموضحاً كثيراً من جوانبها.

فالله (ﷻ) ضرب هذا المثل للناس ليروا ويحسوا حقيقة أولئك الذين يتخذون من دون الله أولياء ويعبدونهم، ويتخذون الأوثان آلهة من دونه ويحتمون بها ويقدمون لها القرابين والهداي ا مثلهم كمثل العنكبوت الضعيفة المُنكسرة المُنهزمة في اتخاذها بيتها للحماية والدِّفاع عن نفسها من خلاله والاحتماء به.

وقد أخذ هذا التمثيل قوته ومعالم صورته من البيئة العربية ، فالعنكبوت في حدِّ ذاتها غير محبوبة وشكلها مخيف، كما أنَّ ما تقيمه من بيت لا يستغر ق مدة طويلة وأنَّ أضعف البيوت هو بيتها الذي احتمت به واتخذته ملجأً تأوي إليه⁽²⁾.

نتلمسُ في هذه الآية المعالم النفسية إذ قرن عمل الكافرين ببيت العنكبوت، قال الجاحظ : "فدلَّ على وهن بيته فكان هذا القول دليلاً على التصغير والتقليل "⁽³⁾ فالسياق يشير إلى هلهلة ما تنسجه العنكبوت وهو "تشبيه قد أخرج ما لا يُعلم بالبديهة إلى ما يُعلم بالبديهة، وقد اجتمعا في

---

(١) مكانة الفواصل من الإعجاز في القرآن: ٩.

(٢) ينظر: الإعجاز الفني في القرآن ، ١٩٨.

(٣) الحيوان: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، ٣/ ٣٨.

ضعف المُعتمد ووهاء المُستنَد، وفي ذلك تحذير من حمل النفس على الغرور بالعمل على غير يقين"(١).

واستعمال القرآن الأمثال المحسوسة لتقريب الصورة إلى ذهن القارئ والسامع ليعيش مع نفسه وتُحيله لهذا التصوير الرائع لأولئك الذين اتخذوا من دون الله أولياء.

إنَّ هذا الانسجام بين الآية والدقة في إحكامها تعود إلى التطابق بين الأجزاء، وإ نَّ المغزى واحد وإنَّ النهاية تضع الآية على غاية من الدقة والقوة.

وتنطبق هذه الآية الكريمة تماماً على الذين خلت قلوبهم من الإيمان والعبادة الحقيقية التي ترجع بهم إلى الخالق الحقيقي لهذا الكون، فهم في نظر القرآن الكريم دواب انحرفوا بطبيعتهم واتجهوا نحو عبادة الأوثان، وهذه الآلهة هي جماد لا حراك بها تتحكم فيهم وتتبرأُ منهم يوم القيامة لأنَّها تُسبِّحُ بحمده (ﷻ) من حيثُ لا يفقهون، وصدق الله (سبحانه وتعالى) إذ يقول: **{ گگگگگ گگگگگگگںںڻڻٹـڈۀ ۀ ہ ہ ہـ }** **[الإسراء/٤٤]** وإنَّ ما تقدمه من قُربان وعطايا وتقديس لا يلبثُ أنْ يكون سُدى ويذهب جفاء وهباء منثوراً، وشبَّه كُلّ هذا ببيت العنكبوت في ضعفها وانهيارها وعدم قدرتها على حماية نفسها، فالآلهة التي اتخذتموها لا تملك قدرة الدفاع عن نفسها ولا عن غيرها ولا تنفع أو تضر أصحابها، وإنَّ العنكبوت كذلك لا تملك حماية بيتها ونفسها من الانهيار والدمار لأقل حركة(٢).

فانسجام الخاتمة أعطى المعنى المجرد تجسيماً للأعمال القبيحة بصورة مرئية تعتمد على التشبيه المركب، ودلت على طبع هذا الحيوان ليُعطي البعد الإنساني لذكره وعنايته ترتكز على البيت وليس على العنكبوت بشكل بشع وما يضفيه على الكافر، وفي انسجام الخاتمة **{ ڪگ گ }** تعريض بجهل هؤلاء المعترضين على القرآن(٣)، ويُؤكِّدُ غباءهم ويزيل من جهلهم.

ونظير ما تقدم قوله تعالى : **{ ئا ئـئـئوئوئۇئۇئوئوئىئۈئېئىئىئىى يـيـئجئحئمئىئيبجبح بخ }** **[لقمان/٣٤]** فقد جاء انسجام الخاتمة في قوله تعالى : **{ بجبحبخ }** بعد التدرج في جملة من المعاني المُتناسقة، مُكتملة العبارة مُنسجمة في تأدية معناها، فالعلم والخبرة مُقتصران على الله (ﷻ) فهو عليم بخلقه خبيرٌ بأعمالهم وبما يُصيبهم من النَّفع والضُّر(٤) وبهذا الانسجام تطمئنُّ النّفس بعد حيرتها وتساؤلاتها النفسية المُتموجة، وتنقلها إلى عالم الغيب بتدرج منط قي يشهد بعجز الإنسان حتى في أيسر أموره ا كالكسب اليومي، وهذ ا التدرج من خفايا الغيب إلى خفايا

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم: للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، ٧٨.

(٢) ينظر: الإعجاز الفني في القرآن: ١٩٨ – ١٩٩.

(٣) جماليات المفردة القرآنية: أحمد ياسوف، ١٣٥.

(٤) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن المسمى (تفسير الطبري)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ٢١/ ١٠٠، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم المعروف بـ(تفسير أبي السعود): ٥/ ١٩٦.

حياتنا المادية، فالساعة خافية عنَّا لا يعلمها إلاَّ الله، وقد ابتدأت بها الآية ثُمَّ يعقبها نُزول الغيث وهو خفي عنَّا وإنْ لمسنا آثاره، فطريقة إنزاله وتوقيته وما إذا كان نافعاً أو مُضراً أمور لا يعلمها إلاَّ الله، فالساعة ونزول الغيث يعقبهما القرآن الكريم بعلم الله تعالى لما في الأرحام.

كما أنَّ الأم لا تُدرك طريقة نمو جنينها إنْ هي حملت به، ولكنَّها تلمس في نفسها شعوراً خاصاً وانتفاخاً يتزايد يوماً بعد يوم وهي لا تعرف كيف يتم ذلك.

وتستمر الآية بذكر الأمور الخفية لتصل إلى و اقعنا المحسوس وتمسه بتعبيرها، وتُحرِّك فينا منبهات الإدراك بعد أنْ عرضت علينا تدرج المعاني في تسلسل منطقي، وتربط كُلّ ما سبق بما هو ألصق بحياتنا بقوله تعالى : { ئى ئې ئى ئې ئى ی یـ یـ ئج ئح ئم ئى ئي } إنَّ الموت حقيقة نكاد نُشاهدها كُلَّ يوم فأكَّدها القرآن بـ (ئى ئې ئى) وكررها مرتين، النفّس لا تدري لأنَّها لُغزٌ في حدِّ ذاتها وخالية من المعرفة والدراية ومرتبطة بخالقها، وعالمٌ من يُحيطُ بها لذلك نبه القرآن العقول بانسجام الخاتمة على ما سبق ذكره لِيُثبت في النفوس حقيقة أنَّ علم الغيب لله (ﷻ) وحده فهو عليم، وجاء بصيغة المبالغة (**فعيل**) للدلالة على إحاطة علم الله تعالى بكُلِّ شيء في الوجود، وكذلك جاء (بم) على صيغة المبالغة نفسها ليدلَّ على أنَّ الله (ﷻ) خبير بخلقه عليم بأحوالهم ومآلهم(١).

ومن انسجام الخاتمة قوله تعالى: { يـ يـ ئج ئح ئم ئى ئي بج بح بخ } [**المائدة/٥٠**] فإنَّ الكلام قد تمَّ بقوله(ﷻ) { ئم ئى ئي بج بح } ثُمَّ أتى بانسجام يُناسب القرينة الأولى، فلما أتى به أفاد معنى زائداً – بحسب رأيهم– ولو صدق هذا القول لأمكننا أنْ نعدّ قوله تعالى : { ڈ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ چ چ } [**النمل/٨٠**] ثُمَّ أراد أنْ يُعْلِمَ تمام الكلام فقال : { ڦ چ چ } ولو كانت زائدة لاستغ نينا عنها، ولا يُوجد شيء في القرآن الكريم زائداً البتة، إنَّما يأتي لغرض بلاغي ومعنى دلالي، "فإنْ قيل : ما معنى (چ) وقد أغنى عنها قوله تعالى :(چ)؟ قلت : لا يُغني عنها (چ) فإنَّ التولي قد يكون بجانب من دون جانب "(٢) بدليل قوله تعالى : { ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ } [**الإسراء /٨٣**] ولا شك في أنه (ﷻ) لمَّا أخبر عنهم أنَّهم صمٌّ لا يسمعون أراد تتميم المعنى بذكر توليتهم في حال الخطاب لينفي عنهم الفهم الذي يحصل من الإشارة، فإنَّ الأصم له إدراك بعض الإشارة ثُمَّ إنَّ التولي قد يكون بجانب من لحاظه بالجانب الآخر، فيحصل له إدراك بعض الإشارة بجملة (چ) لِيُعلم أنَّ التولي كان بالجوانب جميعها بحيث لو صار ما كان مستقلاً مُستديراً فاحتجب

---

(١) ينظر: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد، المسمى اختصاراً (التحرير والتنوير): محمد الطاهر ابن عاشور، ٢١/ ١٣٧.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ٣ /٣٧٠.

المُخاطَب عن المُخاطِب أو صار من ورائه فخفيت عن عينه الإشارة، كما صُمَّتْ أذناه عن العبارة فحصلت المبالغة من عدم السماع بالكلية⁽¹⁾.

فانسجام الخ اتمة جاء ليُناسب المعنى ويزيد من المبالغة، إذ ينفي عنهم الفهم الذي يحصل بالإشارة، فهم فاقدون للسمع بصفة الصم، ولدلالة الإشارة بصفة التولي (ﭻ)، فانسجام الخاتمة نفى خصوصية السماع بالإشارة والعبارة عنهم وهذا من تمام الإعجاز، وقد زاد الآية وضوحاً وشرحاً وتوكيد اً وحُسناً وأتى انسجام الخاتمة لنكتة بلاغ ية أعطى المعنى تمامه، وليس مجيؤه لإكمال الآية إكمالاً بل لكُلّ جملة سرّها البلاغي ومعناها الدلالي في موضعها – سواء عرفنا ذلك أو جهلناه– فالبليغ لو رفع كلمة واحدة من القرآن الكريم وأدار لسان العرب على أنْ يأتي بأخرى تسد مسدها لأعياه ذلك.

إنّ انسجام الخاتمة أسهم بأثر فعال في إعجاز القرآن وذلك من خلال التناسق اللغوي والصوتي، إذ كان انسجام الخاتمة وثيق الصلة بالمعنى إذا كان المعنى هو المُراد، وتوافرت فيه الخصائص الصوتية جميعها التي تنشأ منها ظاهرة التوافق الموسيقي بين الآ يات وانسجام الخاتمة، وبذلك يصعب تحريك كلمة ووضع أخرى مكانها أو تبديلها بغيرها، وهذا هو سرُّ إعجاز انسجام الخاتمة فكان بمثابة السور المنيع والحصين لحفظ كتاب الله المُبين.

وإنَّ حبك عناصر انسجام الخاتمة إنَّما يبدأ من التناسق الصوتي في الكلمات، ثُمَّ من التآلف التركيبي بين المفردات التي تتكون منها الجمل.

وشبيه ما تقدم قوله تعالى : { ئرئيرجحخم } [**المؤمنون/١٠٤**] فانسجام الخاتمة (**بحخم**) جاء تعقيباً لقوله تعالى : (**ئرئيرج**) وهو يُصوِّرُ لنا حالهم في تلك اللحظة، وهذا الانسجام والتتابع في ا لألفاظ وتداعيها وتولّد اللفظة من غير ها بحكم ما تملكه من حسٍّ يمسُّ ملكة الفن والذوق وتُحْدِثُ فيه تجاوباً عميقاً ⁽²⁾، فجملة (**بحخم**) ناسبت قوله تعالى : (**ئرئيرج**) لأنَّ اللفح بمعنى السّفع وهو لكل حار⁽³⁾، قال ***الزجاج*** :" يلفح وينفح في معنى واحد إلاَّ أنَّ اللفح أعظم تأثيراً"⁽⁴⁾، لذلك استعمل القرآن في الآية تلفح لتأكيده شدة التأثير عندما تلفح وجوه الذين خسروا أنفسهم، وإنَّ الذي يُناسب لفح الوجوه بالنّار وأنْ "تضرب وجوههم وتحرق عظامهم وتأكل لحومهم النّار "⁽⁵⁾ هو الكلوح الذي ورد في قوله تعالى : (**بحخم**) لأنَّ الكلوح هو أصلٌ يدلُّ على تكشر

---

(١) ينظر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، فخر الدين محمد بن عمر الرازي ٢٤/ ١٨٦، والتحرير والتنوير : ١٩/ ٣٠٦.

(٢) الإعجاز الفني في القرآن: ١٧١.

(٣) تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن احمد الأزهري ، مادة (لفح) ، ٥/ ٧٤.

(٤) معاني القرآن وإعرابه: أبو إسحاق إبراهيم السري الزجاج ، ٤/ ٢٠.

(٥) تنوير المقباس في تفسير ابن عباس: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، ٣٤٨.

فيه عبوس، والكالح الذي قد تشمّرت شفتاه وبدت أسنانه، ويدلُّ على شتامة (١) في الوجه، ورُبَّما قالوا للسَّنة المُجدبة: كلاح(٢).

وصوَّر ***الزمخشري*** هذا المعنى بقوله: "أنْ تتقلص الشفتان وتتشمرا عن الأسنان كما ترى الرؤوس المشوية"(٣). إذا مستها النار فبرزت الأسنان وتشمرت الشفاه(٤). ويُعزز هذه الحقيقة ما رُوي عن النبي (ﷺ) أنَّه قال: ((تَشْوِيْهِ النَّارُ فَتُقَلِّصُ شَفَتَهُ العُلْيَا حَتَّى تَبْلُغَ وَسَطَ رَأْسِهِ وَتَسْتَرْخِي شَفَتُهُ السُّفْلَى حَتَّى تَبْلُغَ سُرَّته))(٥) ومنه قوله تعالى : **{ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ }** **[الأنبياء/٤٦]** إلاَّ أنَّ تلفح أبلغُ بأساً من تنفح، لذا يُقال : لفحته النّار والسموم بحرها أحرقته، ولفحته بالسّيف لفحة إذا ضربته به ضربة خفيفة، ولا يُقال: نفخته(٦).

ومن ذلك قوله تعالى : **{ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ }** **[فاطر /١٤]** فقوله تعالى: **{ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ }** جاء منسجماً لما عرض له من صورة الآلهة وهي صمٌّ بُكمٌ لا حراك بها، وتحمل معها يوم القيامة وثيقة براءة ممّا نُسب إليها من أ لوهية، وبذلك تُجَسّم أعمال المُشركين وهي هباء منثور ، وهذا المعنى يُؤكِّدُهُ الخالق بانسجام الخاتمة ليدع الضمير الإنساني يُصدق تلقائياً في قوله تعالى : **{ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ }** أي: لا يُبَلِّغُكَ مثل هذا الأمر إلاَّ مَنْ كان خبيراً، والله (ﷻ) خبيرٌ بخفايا الأُمور ودقائقها وما تُخفيه الصدور، وهو الذي يُنبئك بما يحدث للآلهة المصطنعة، وللذين يتخذو نهم أرباباً من دون الله (٧)، وهو انسجام "لتحقيق هذه الأخبار بأنّ المُخبِر بها هو الخبير بها وبغيرها ولا يُخبرك أحدٌ مثل ما يُخبرك هو"(٨).

فانسجام الخاتمة متسق مع المعنى العام للآية، فإنَّ استنطاق الجماد واستشهاده على أنَّه براء ممّا نُسب إليه من أُلوهية يحتاج إلى صدق المُخْبِر، و المُخْبِرُ هنا هو الله (ﷻ) ومن أصدق من الله قيلاً وخبراً، ثُمَّ إنَّها صيغت في تعبير يحملُ في ذاته قوة النفاذ إلى مسارب النَّفس ، وذلك لأنَّ في **{ ﮞ ﮟ }** نغمة نفسية مؤكدة بصدق الخبر وقائله.

---

(١) يقال: شتم فلانٌ فلاناً شتْماً، وأسدٌ شتيمٌ، وحمارٌ شتيم، وهو الكريه الوجه القبيح . تهذيب اللغة: مادة (شتم)، ١١/ ٣٢٨.

(٢) مقاييس اللغة: أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، مادة (كلح)، ٥/ ١٣٤.

(٣) الكشاف: ٣/١٩٩.

(٤) معاني القرآن وإعرابه: ٤/٢٠.

(٥) سنن الترمذي: محمد بن عيسى الترمذي السلمي، ٥/ ٧٠٨.

(٦) ينظر: تهذيب اللغة، مادة (لفح)، ٥/ ٧٤، وتاج العروس: مادة (لفح) ، ٧/ ٥١.

(٧) ينظر: الكشاف، ٣/ ٥٨٧.

(٨) التحرير والتنوير: ٢٢/ ١٤٠.

فهذا الانسجام أرسل الأمثال فلا ينبغي تخصيص مضمونه بمخاطب معين، والمراد بـ(ڻـ) جنس الخبر، فلما أرسل هذا القول مثلاً وكان شأن الأمثال أن تكون موجزةً صِيْغَ على أسلوب الإيجاز، فحذف منه وتعلق فعل (يُنبئ) ومتعلق وصف (ڻـ) ولم يذكر وجه المماثلة لعلمه من المقام(١).

وجعل (ڻـ) نكرة مع أنَّ المُراد به خبير معين وهو المتكلم فكان حقه التعريف فعدل إلى تنكيره لقصد التعميم في سياق النفي، لأنَّ زيادة كلمة (ڻ) إلى خبير لا تُفيدُ تعريفاً وجعل نفي فعل الإنباء كناية عن نفي المُنبئ(٢).

وقوله تعالى : { ئۆئۈئۇئىیـیـدئجئحئمئىئيبجبحبخ ىبي تج [الأحقاف /٢٨] إذ يُؤلِّف الانسجام فيه تناسقاً بالصياغة الفنية في التعبير ويرتبط بالسياق، فلا يشعر فيه بالذوق بعقادة أو نفور، ولا العقل بخلل في المعنى لذا جاء انسجام الخاتمة على طريقة المُباغتة، وأحياناً تأخذ المُباغتة فيه شكلاً آخر كقوله تعالى : { ڪگگگگگڳڳڳڳ } [البقرة/١١] وقوله تعالى : { ۀ ہ ہ ہـ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ } [البقرة/١٣] فالتعبير بـ (ڭ ... ۇ) يُعبِّرُ عن أُسلوب عنيفٍ في مُباغتة النَّفس يتلوه وصفٌ يُوحي بالغباء والتحجر والعمى، ولبئس ذلك من مصير وعاقبة(٣).

إنَّ (ڭ) تأتي للاستفتاح وفائدتها التنبيه على تحقيق ما بعدها وهي مركبة من (همزة) الاستفهام و(لا) النافية، والاستفهام إذا دخل على النفي أفاد التحقيق(٤).

وقد ترد (ۓ) في صيغة تختلف عمّا سبق ذكره في تناسق عجيب، وقد ينفرد الذوق بإدراكه كقوله تعالى: { ڈ ۀ ۀ ہ ہ ہـ ھـ ھ ھ ھ ے ے ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ } [آل عمران /١٧٠] إنَّ (ۓ) أمسكت وحدة التعبير تركيباً ومعنى، وبذلك كانت أشدّ تأثيراً ووقعاً على النّفس، كما أنَّها أمتنُ سبكاً وأكثرُ اتساقاً مع السياق، وهذا يدلنا على أنَّ القرآن الكريم ينتقي الأسلوب والصيغة الأكثر تلاؤماً لمحتوى العبارة، وأشدّ تناسقاً مع السياق ووصلاً لأجزاء الآية.

فالمؤمنون في حال استبشار دائم بحيث لا يعتريهم خوفٌ أو حزن فأحسن الانسجام بقوله تعالى: { ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ } وفيه دلالة على التعظيم والاستبشار والسرور(٥).

وكذلك قوله تعالى : { ئۇئۆئۆئۈئۈئېئېئىئى } [الصف /١٣] إذ ورد انسجام الخاتمة بمقطعين مُختلفين كُلُّ مقطع يُؤكِّدُ الثاني مع تسلسل بين الأجزاء وتناسقها، والمقصود بقوله

---

(١) ينظر: الإعجاز الفني في القرآن، ١٩٤.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ٢٢/ ١٤٠.

(٣) الإعجاز الفني في القرآن : ١٩٤.

(٤) البرهان في علوم القرآن : ٤/ ٢٣٥.

(٥) الإعجاز الفني في القرآن : ١٩٤.

تعالى: { ﯘﯙﯚ} أي: "نعمة أُخرى عاجلة محبوبة إليكم"(١)، فضلاً عن النِّعمة المذكورة والثواب في الآخرة، والفتح : فتح مكة، وقيل : فتح فارس والرو م(٢)، ويرى *الزمخشري* في صيغة تُحِبُّونَهَا : "شيئاً من التوبيخ على محبة العاجل"(٣).

إنَّ السبك بين أجزاء العبارة بصيغة موجزة كُلَّ الإيجاز، وبإيقاع خاصٍّ يزيدان في تناسق أجزائها، ويُبرزان انسجام الخاتمة منها وتناسقها الذي يرتبط مُباشرة بحبِّ نعم الله ونصره، ومنه الفتح وكُلُّها بُشرى للمؤمنين، وصيغت البُشرى هنا بفعل الأمر (**بَشِّر**) إشعاراً بصدق الوعد وصدق البُشرى(٤).

ونجد في الآيات القرآنية وعباراتها انسجاماً عنيفاً يُوازي عنف السياق كما في قوله تعالى: **{ ﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛ }** [**فاطر**/٢٦] إنَّ أخذ الله (ﷻ) لعباده الكافرين، والتنكيل بهم جزاء بما كسبوا الذي يُفيده قوله : **{ ﮔﮕﮖﮗﮘ }** لا بُدَّ أنْ يُناسبه انسجامٌ يُوازيه قوة وعُنفاً ويُؤكِّدُ مغزى السياق لذلك جاء انسجام الخاتمة **{ ﮙﮚﮛ }** معبراً عن غاية من التناسق مع المعنى السابق، يُعززه الاستفهام بـ(**كَيْفَ**) و(**ﮛ**) وكذلك استعمال حرف العطف (**الفاء**) في (**ﮙ**) التي تُفيد سرعة التعاقب، وأنَّ مغزى التعقيب يُفيد شدّة التعذيب والتنكيل بالقوم الكافرين(٥).

ونلمس التفنن في انسجام الخاتمة في قوله تعالى : **{ ﯧﯨﯩﯪﯫﯬﯭﯮﯯﯰﯱﯲﯳﯴﯵﯶﯷﯸ }** [**القصص**/٨٣] فالآية لم تُوضح هويّة أهل الدار الآخرة توضيحاً معيناً بل وصفتهم بالذين لا يُريدون عُلُوّاً في الأرض ولا فساداً، ويأتي انسجام الخاتمة **{ ﯶﯷﯸ}** بالتنصيص على (**الْمُتَّقِينَ**) الذين من صفاتهم ألاَّ يعلوا في الأرض ولا يعثوا فساداً في ربوعها (٦)، ويعمد انسجام الخاتمة هنا إلى تسكين النّفس وطمأنتها.

إنَّ المعاني التي يبعثها انسجام الخاتمة إلى الوجود في صيغة تعبيرية تثبت معالمها بجلاء ووضوح الوحدة التركيبية، وإنّ انسجام الخاتمة أمسك بزمام الآية ووضع نفسه في الموضع الذي يجب أنْ يكونَ فيه، وأحكم التآلف بين أجزائه وطبع صيغه بطابع الانسجام والوحدة والترابط بين المعاني في الآيات القرآنية من ذلك قوله تعالى : **{ ﯧﯨﯩﯪﯫﯬﯭﯮﯯﯰﯱﯲﯳﯴﯵﯶﯷﯸﯹﯺﯻﯼﯽﯾﯿ ﰀﰁﰂﰃﰄﰅﰆ }** [الزمر /٩] إنَّ إحداث رجة نفسية بالرّبط بين أجزاء الآيات وبأُسلوب يُغاير أُسلوب السياق لما يُؤكِّدُه القرآن في تعابيره ويكمن فيه سر من أسرا ر سحر القرآن، وبعد أنْ لفت

---

(١) الكشاف : ٤/ ٥١٥.

(٢) ينظر: التفسير الكبير، ٢٩/ ٢٧٦.

(٣) الكشاف : ٤/ ٥١٥.

(٤) الإعجاز الفني في القرآن : ١٩٥.

(٥) الإعجاز الفني في القرآن: ١٩٥.

(٦) ينظر: الكشاف ، ٣/ ٤٢٠.

النظر إلى المقايسة أشار إلى أنَّ الإدراك بالتذكر والتدبر يُدركه أولوا الألباب، لذا جاء انسجام الخاتمة في قوله تعالى : { ى ى يـ يـ } أي: ذوو العقول المُدركة، فلبُّ الشيء خالصه وما يُنتقى منه⁽¹⁾، وإنّ وحدة الترابط والتآلف التي تمّ ت في الآية بالنسق الحاصل بين (إِنَّمَا) ولفظ (ئو) وتزاحم المعاني وتسلسلها بحسب درجة التأثير والإثارة وضعت الآية في ترابط عميق⁽²⁾.

إنَّ هذا التسلسل في المعنى الذِّهني وتموج الفكرة بالذِّهن والنَّفس يتضح حين تدبّر هذه الآية، فمغزى (ئـا) (ئو) يتلاءم كُلّ التلاؤم مع المعنى السابق الذي يُمثِّلُ قمة العمل والطاعة، حيثُ القنوت والخنوع والقيام بالليل والحذر في الآخرة، والأمل في رحمة الله (ﷻ) وبعد رسوخ هذا المعنى وتغلغله في النَّفس يتموج الفكرُ لينتهي إلى إدراك الحقيقة بأُسلوب المقايسة بالخطاب المُباشر بلفظ (ئو) وهو يحملُ أمراً إلهياً وحقيقة ربانيةٍ⁽³⁾، وهذه الأمور كلُّها جالت في الذِّهن وتغلغلت في النُّفوس لا يُمكنُ إدراكها إلاَّ من ذوي الألباب.

ونلحظ في الآية الهدوء العام الذي يُشعرنا بأنَّ النفوس في هذا الليل تُناجي ربَّها (ﷻ)، وهدوء حروف الآية وانسيابيتها ينسجم مع هدأ ة الليل كما أنَّها تُشيرُ إلى صفاء النُّفوس وهدوئها من كُلِّ مشين، فجو الآية مُحاط بالسكينة والرحمة والتضرع والخنوع والخضوع والخشوع والتذلل لله (ﷻ)، وفي الآية تذكير لأصحاب العقول السليمة والفطر النقية.

فالنغم الهادئ وتوزيع الأصوات والحروف في بنية الكلمات و الوحدة والانسجام والتوافق بين الجرس والنّغم العام للآية أضفى عليها جواً هادئاً مُنساباً ت رتاح له الأبدان وتطمئنُّ له النُّفوس.

وكذلك نلحظ انسجام الخاتمة في قوله تعالى : { ۓ ۓ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ } [**الإسراء/٦٤**] يعود في هذا السياق على المعنى العام للآية بل على المعنى الذي يحذوه، لأنَّ هذا الجزء من المعنى يرتبط بالسياق وهو أداة وصل بين انسجام الآية فيما بينها.

فجملة { ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ } تتصل مُباشرة بقوله تعالى : { ﯛ } ومما يشمله الوعد هنا كُلّ ما يقوم به الشيطان من استفزاز لمن استطاع أنْ يمل ك نفسه بالصوت أو بالخيل أو الرَّ جل أو بالأموال أو بالأولاد أو غير ذلك، وكُلّ هذا داخل في عمل الشيطان إزاء ابن آدم، فناسب أنْ يعودَ انسجام الخاتمة على { ﯛ } وهذا إذن على السياق، وهكذا يتمُّ الترابط والانسجام في وحدة كاملة متصلاً بعضها ببعض مُباشرة⁽⁴⁾.

---

(١) مقاييس اللغة: مادة (لب)، ٥/ ٢٠٠.

(٢) ينظر: الإعجاز الفني في القرآن، ١٧٤.

(٣) ينظر: الإعجاز الفني في القرآن، ١٧٤.

(٤) المصدر نفسه : ١٩٦.

إنَّ هذا التراصّ في المعنى والصياغة وهذا الإحكام في الرّبط بين أجزاء الآية ومتانة السبك بين مُفرداتها وسلامة الانتقال من بداية الآية إلى خاتمتها تجسد مظهراً من مظاهر الانسجام في المعنى والصِّياغة في المقصد القرآني.

إنَّ من مهام المقصد القرآني في هذه الآية الوضوح و التأثير، وذلك الرّبط ودقة الانسجام من ذلك قوله تعالى: { ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ } **[الإسراء/٤٠]** فانسجام الخاتمة { ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ } مُتناسق بـ{ ﮔ } إنَّ الثقيلة، وبالخطاب المُباشر بالضمير المتصل (ﮑُﻢْ) وتعقبه شهادة إلهية { ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ } إنَّه قولٌ عظيم بكُلِّ ما في لفظ **(ﮕ)** من نطق حقيقي، وما في لفظ **(ﮗ)** من فظاعة وتشنيع.

إنَّ اللام في **(ﮕ)** ووصف القول بالعظيم تفيدان التأكيد، ليزداد طابع التشنيع وضوحاً وفظاعة بما نسبوه إلى الله (ﷻ) من اتخاذه الملائكة إناثاً، ويخصون أنفسهم بالبنين من البشر لذلك بدأتِ الآية بالهمزة التي تُفيد الإنكار والتعجب في قوله تعالى: { ﮋ }.

كذلك نلحظ اختيار الفعل **(أصفى)** بدلاً من **(مَيَّز)** إذ الأول من الصَّفاء وهو ضدّ الكدر، يُقال: صفا يصفو إذا خلص، وهو أدق من **(مَيَّز)** ويُفيد النقاوة ثُمَّ الاستحقاق، وهو في الآية يُعبِّرُ عن نفسية الكافرين ومدى ما تع تقده في نسبة الإناث للخالق، فساد الآية طابع من الاحتقار، احتقار الله تعالى لمن ينسب إليه هذه المعتقدات لذا جاء انسجام الخاتمة يحمل الحروف الشديدة لتقف بوجه أولئك الذين لا يفقهون شيئاً، ولِتُعبِّرَ عن غلظ هذا الأمر وشناعته وعظم الفرية التي يقولونها⁽¹⁾.

وقوله تعالى: { ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ } **[النساء/٧٨]** إنَّ حقيقة الموت واقعة تُصيب كُلَّ حيٍّ ولو احتمى هو وغيره في بروج مُشيدة حصينة، وقصور منيعة، وتجمع له من الحرس والحماية ما لا يُعدُّ ولا يُحصى، فإنَّ إرادة الله تنفذُ من دون أنْ تحدها سدود ولا تمنعها حدود.

فالآية عرضت نماذج بشرية مُنحرفة عن فطرتها تتخبط بكلامها، إنْ أصابتها حسنة قالوا هي من عند الله، وإن أصابتها سيئة قالوا هي من عندك أنت يا محمد (ﷺ): "يعنون من شؤم محمد وأصحابه"⁽²⁾ ويأتي بعد قولهم هذا انسجام الخاتمة عنيفاً يوسم الجدال بفعل القول { ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ }، ويُؤكِّدُ بتهكم ساخر بقوله تعالى: { ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ }.

إنَّ التعبير بـ { ﰀ ﰁ ﰂ } يُعبِّرُ عن تحجرهم وبلادة أذهانهم و تذبذبهم وعدم ثقتهم بأنفسهم، والحيرة الداخلية التي يعيشونها إذ إنَّهم أوشكوا ألاَّ يفقهوا أيَّ حديث.

---

(1) ينظر: الإعجاز الفني في القرآن، ١٨٢.

(2) تنوير المقباس في تفسير ابن عباس: ٩٠.

إنَّ وحدة الترابط والتآلف في الآية القرآنية تبدو جلية وواضحة، يُعززها تناسق العبارة بـ { ئى} و { ى يـ } والآيات القرآنية كثيرة في هذا المجال حيث عنف الجدال، وقوة فعل القول وشدّة الردود العنيفة والاستنطاق التلقائي.

وقوله تعالى: { چ چ چ چ ڇ چ ي ڍ } [سبأ /١٧] إنَّ ترابط المعنى يُفيد التأكيد أن انسجام الخاتمة يلائم الجو العام للآية.

إنَّ تأكيد المعنى في انسجام الخاتمة بديع في قوله تعالى : { ڇ چ ي ڍ } فإنّ ّه يزيد المعنى وضوحاً وتحديداً ورسوخاً.

وفي هذا المقطع جاء لفظ (كَفُور) على صيغة (فعول) وهي مُعرّفة بالألف واللام، إذ إنّها تتناسب ولفظ (ڇ) في المقطع الأول، وكُلّ منهما يحمل جرْساً واحداً وإنْ اختلفت درجة الأداء في المعنى.

وفي النهاية خرج البحث بنتائج مهمة أهمها :

- وجدنا أنّ الانسجام في اللغة يدور حول انصباب الماء وانتظام الكلا م بحيث يكون مُنسجماً ومتسقاً في تركيبه.
- يظهر انسجام الخواتيم في تعقيب جملة على أخرى لأجل التوكيد أو التوضيح لأغراض بيانية يكشفها السياق.
- أنَّ انسجام الخاتمة لا يأتي بوصفه حلية لفظية من دون اعتبار للمعنى بل يأتي لغرض بلاغي ومعنى دلالي اقتضاه السياق القرآني ذلك.
- ارتأينا اختيار مصطلح الانسجام بدلاً من الاتساق لأنّ الأول أعم من الثاني، وكذلك يُشترط في الأول قيام فعل من المتلقي مقابل فعل النّص، فيما يفتقده الثاني في أغلب الأحيان.
- ثمة مصطلحات أطلقها بعض الباحثين المعاصرين على الانسجام مثل : التداعي والثابت البنيوي والتكثيف.
- إنّ انسجام الخاتمة في قوله تعالى: { مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } يوضح معالم التشبيه في الآية و يؤكّد غباءهم.

- بيّن انسجام الخاتمة في قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } التدرج المتناسق في الآية ، لأنّه تعالى خبير بخلقه عليم بأحوالهم ومآلهم.
- أعطى انسجام الخاتمة تماسكاً دلالياً وتركيبياً للسياق القرآني كما في قوله تعالى : { فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } فكان أشد وقعاً وتأثيراً في النفوس، وأشدّ تناسقاً مع السياق ووصلاً لأجزاء الآية.
- يربط انسجام الخاتمة أجزاء الآيات بأسلوب يُغاير أسلوب السياق لما يُؤكِّده القرآن الكريم في تعابيره في مُخاطبة العقول والتفكر بخلقه سبحانه وتعالى.

المصادر والمراجع

- **الإتقان في علوم القرآن**: جلال الدين السيوطي، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د.ت).
- **الإعجاز الفني في القرآن** : عمر السلامي، مؤسسات عبد الكريم عبد الله، تونس، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م.
- **أنوار الربيع في أنواع البديع** : صلاح الدين بن معصوم المدني (ت١١٢٠هـ)، تحقيق: شاكر مهدي شكر، ط١، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م.
- **البرهان في علوم القرآن** : بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي **(ت ٧٩٤هـ)**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ١٩٧٢م.
- **تاج العروس من جواهر القاموس** : محمد مرتضى بن محمد الحسيني الزّبيدي، اعتنى بع ووضع حواشيه: عبد المنعم خليل إبراهيم وكريم سيد محمد محمود، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٧م.
- **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن** : ابن أبي الإصبع المصري (ت٦٥٤هـ)، تقديم : حفني محمد شرف، ط ١، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٣م.
- **تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد، المسمى اختصاراً (التحرير والتنوير):** محمد الطاهر بن عاشور **(ت**١٩٧٣م**)**، ط١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت– لبنان ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م.

- **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب:** فخر الدين محمد بن عمر الرازي الشافعي **(ت ٦٠٤ هـ)**، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م.
- **التلقي والتأويل – مقاربة نسقية** : محمد مفتاح ، ط٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء–المغرب، ٢٠٠١م.
- **تنوير المقباس في تفسير ابن عباس** : لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الشافعي (٨١٧هـ)، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.
- **تهذيب اللغة** : أبو منصور محمد بن احمد الأزهري **(ت٣٧٠هـ)**، تحقيق: عبد السلام هارون، راجعه: محمد علي النجار، دار الصادق للطباعة والنشر، (د.ت) (د.ط).
- **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم** : للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، حققها وعلق عليها : محمد خلف الله ود . محمد زغلول سلام، ط ٢، دار المعارف، مصر، ١٣٨٧هـ=١٩٦٨م
- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف (تفسير الطبري):** أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، ضبط وتعليق : محمود شاكر، ط ١، دار إحياء التراث، بيروت– لبنان، ١٤٢١هـ = ٢٠٠١م.
- **الجامع لأحكام القرآن** : أبو عبد الله بن احمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م.
- **جماليات المفردة القرآنية:** أحمد ياسوف، ط٢، دار المكتبي، سورية – دمشق، ١٤١٩هـ =١٩٩٩م.
- **الحيوان** : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، مكتبة الخانجي، القاهرة، تحقيق: عبد السلام هارون (د.ت) (د.ط).
- **ديناميه النّص (تنظير وإنجاز):** محمد مفتاح، ط٣، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء–المغرب، ٢٠٠٦م.
- **ديوان طرفة بن العبد:** تحقيق: فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ١٩٨٠.
- **سنن الترمذي** : محمد بن عيسى الترمذي السلمي (ت٢٧٩هـ)، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت– لبنان، (د.ت)،
- **فعالية القراءة وإشكالية تحديد المعنى في النّص القرآني:** محمد بن أحمد جهلان، ط١، صفحات للدراسات والنشر، سورية، ٢٠٠٨م.
- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** : جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.

- **لسان العرب** : ابن منظور جمال الدين محمد بن مُكرّم الأنصاري (ت٧١١هـ) المؤسسة المصرية، (د.ت) (د.ط).
- **لسانيات النص- مدخل إلى انسجام الخطاب-** : محمد خطابي، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، ١٩٩١م.
- **معاني القرآن وإعرابه** : أبو إسحاق إبراهيم السري الزجاج (ت ٣١١هـ) شرح وتعليق: عبد الجليل شلبي، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م .
- **مقاييس اللغة** : أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ) تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، القاهرة، ١٩٧٩م.
- **من أسرار التعبير في القرآن -الفاصلة القرآنية-** : عبد الفتاح لاشين، دار المريخ ، القاهرة، ١٩٨٢م .
- **مكانة الفواصل من الإعجاز في القرآن** : محمد رجاء حنفي، الدارة، ع (٣)، س(١٥)، ١٩٩٠.
- **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع** : أبو محمد القاسم الأنصاري السلجماسي (ت٧٠٤هـ) ، تقديم وتحقيق : علال الغازي، ط ١، مكتبة المعارف، الرباط – المغرب، ١٤٠١هـ = ١٩٨٠م.
- **مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح** : أبو العباس أحمد المغربي (ت١١٢٨هـ)، تحقيق : خليل إبراهيم خليل، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.